(وجوه اعجاز القرآن لدى المتقدمين)

يجمع العلماء على أن وجه الاعجاز الذي وقع به التحدي وقت نزول القرآن، والذي اعجز العرب عن معارضته والاتيان بمثله هو الاعجاز اللغوي، بمعنى أن أسلوب القرآن ونظمه وبلاغته كانت من السمو والتميز ما أذهل العرب عندما سمعوه، وكانوا هم أهل الفصاحة والبيان والتفنن في أساليب القول، وهذا الوجه هو المجمع عليه من بين الوجوه الأخرى التي تعددت حولها الآراء وتنوعت.

ودراسة وجوه الاعجاز لدى المتقدمين تتطلب عرضها من خلال ستة مباحث:

المبحث الأول: الاعجاز في النظم والتركيب النحوي.

المبحث الثاني:الاعجاز في البلاغة والبيان.

المبحث الثالث:خصائص أسلوب القرآن

المبحث الرابع: الاعجاز في الاخبار بالغيب.

المبحث الخامس: الاعجاز التشريعي

المبحث السادس: الاعجاز العلمي

المبحث الأول

الاعجاز في النظم والتركيب النحوي

النظم لغة: معناه التأليف كما ورد في لسان العرب وفي القاموس المحيطوالمعجم الوسيط، والمعنى اللغوي المشترك: هو ضم الشيء الى الشيء وتنسيقه على نسق واحد.

النظم اصطلاحا: يستفاد من المعنى اللغوي للنظم بأن المنظوم من كل شيء:ما تناسقت أجزاؤه على نسق واحد. وان معنى نظم القرآن: هو تناسق أجزائه وعباراته التي يشتمل عليها المصحف صيغة ولغة على نسق واحد.

وهذا هو أساس المعنى الذي ذهب اليه الجرجاني في كتابه(دلائل الاعجاز)وربطه بالنحو، فالنظم عنده:(تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض)، أو هو:(توخي معاني النحو)، وفصل فكرته بقوله:(واعلم أن ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها).

وقد ضرب لفكرته ومقصده منها أمثلة تبين التنوع في الاستعمال وخصوصية دلالة كل منها، فمثلا ينظر في الخبر الى الوجوه التي يتصرف فيها القول والفرق في دلالته، فنقول(زيد منطلق)و(ينطلق زيد)و(وزيد المنطلق)و(المنطلق زيد)و(زيد هو المنطلق)و(زيد هو منطلق).

ومثال في الجملة الشرطية فنقول(ان تخرج أخرج)و(ان خرجت خرجت)و(ان تخرج فأنا خارج)و(أنا خارج ان خرجت).

ةالمعنى، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه، مثل أن نأتي ب(ما)في نفي الحال، و ب(لا)في نفي المستقبل، وب(ان)فيما ترجح أن يكون و ألا يكون، و ب(اذا) فيما علم أنه كائن.

وينظ في الجمل فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، وموضع(أو)من موضه(أم)وموضع(لكن)من موضع(بل)وموضع(الواو)من موضع(الفاء)وموضع(ثم)، وهكذا فيما يتصرف اليه الكلام من التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وفي الذكر والحذف، فيضع كلا من ذلك ويستعمله على الصحة وما ينبغي له.

ويقرر الجرجاني من هذه الوجوه وتصرف القرآن بها فيقول:(لا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، الا أنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل الى معاني النحو وأحكامه).

ويبين أن الفرق بين هذه الأساليب ليس فرقا في الحركات وما يطرأ على الكلمات، وانما في معاني العبارات، التي يحدثها ذلك الوضع والنظم.

تاريخ فكرة النظم: بدأت بذور هذه الفكرة على أيدي النحاة ومنهم(سيبويه)فقد تحدث عن النظم وائتلاف الكلام وما يؤدي اليه من حسن أو قبح وصحة وفساد.

والمتفق عليه عند المؤرخين أن الجاحظ هو أول من وضع كتابا مستقلا تحت عنوان(نظم القرآن)، كما تحدث عن النظم في كتبه قائلا:(كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه)وقال ايضا:(وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد)، وله رسالة أسماها (حجج النبوة) التي وضعها للاحتجاج لنظم القرآن.

وهو لا يعني بفكرة النظم بوصفها فكرة لفظية ، وانما كان يريد الأسلوب بمعنى أوسع من رصف الألفاظ، وهو ما اشتمل عليه القرآن من النظم الغريب المخالف لنظم العرب ونثرهم في مطالعه ومقاطعه وفواصله.

ثم تلاه محمد بن يزيد الواسطي الذي وضع كتابا بعنوان(اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه)لكن هذا الكتاب لم يصل الينا، الا أن الجرجاني قد شرحه بكتابين لم يصلا أيضا، ولكن عنوانه يدل على يعالج فكرة النظم، وشرح الجرجاني له كونهما يلتقيا في قضية النظم.

ثم تلاه الطبري المفسر فنبه الى فكرة النظم بقوله:(ومن أفضل تلك المعاني التي فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب ورصفه الغريب وتأليفه البديع الذي عجزت عن نظم مثل أصغر سوره الخطباء، وكلت عن وصف شكله البلغاء، وتحيرت في تأليفه الشعراء.

كما تحدث ابو سليمان الخطابي عن فكرة النظم في رسالته(بيان اعجاز القرآن)، والذي قال:(اعلم أن القرآن انما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمنا أصح المعاني).

ثم جاء ابو بكر الباقلاني صاحب الكتاب الشهير(اعجاز القرآن)، والذي يرى أن الاعجاز متحقق من ثلاثة أوجه:أحدها:ما فيه من عجيب النظم وبديع الرصف، وأنه لا قدرة لأحد من الخلق على تأليف مثله، ولا تاليف سورة منه، أو آية بقدر سورة..).

تطورت هذه الفكرة(نظم القرآن)على أيدي العلماء بمرور الزمن وتناولها واعتنى بها اللاحقون حتى جاء القاضي عبدالجبار ليوضح مضمونها علميا حتى اعتبر عند بعض المعاصرين أول من حدد فكرة النظم تحديدا علميا.

واتخذت الفكرة لاحقا بعدا جديدا على يد عبدالقاهر الجرجاني، الذي فسر هذه النظرية تفسيرا علميا قائما على أسس من المنطق والاستدلال، ثم تجاوزها الى المعاني الثانية التي سماها (معنى المعنى)لأن المعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ، ومعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ، ثم يفضي بك ذلك المعنى الى معنى آخر، فمعنى المعنى أو الدلالة الثانية هي صنو فكرة اللفظ.

تطبيقات وشواهد قرآنية على فكرة النظم:

ـ قال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ **[الأعراف: ٢٠١] فجاء بكلمة مبصرون كونها اسم ولم يأت بالفعل منها يبصرون، لأن الاسم يفيد الثبوت والاستقرار أما الفعل يفيد الحدوث والتجدد، وهنا البصر صفة لازمة للمتقين، ولو كانت يبصرون لأنبأ القرآن عن تجدد واكتساب فعل لا عود صفة.**

ـ قال تعالى:﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا﴾ **[الكهف: ١٨] فجاء بكلمة باسط ولم يقل يبسط لأن القرآن قصد البسط المستمر فجاء باسم الفاعل وليس الفعل الذي يفيد التجدد.**

ـ قال تعالى:﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ **[آل عمران: ٣]** جاء بالفعل نزل عن القرآن وأنزل عن التوراة والانجيل، لأن الفعل نزل يفيد التكرار وهذا ما يناسب تنزلات ونزول القرآن، وانزل مناسبة لنزول التوراة والانجيل كونهما انزل كل واحد منهما دفعة واحدة.

ـ قوله تعالى:﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ **[البقرة: ٢٢٩] وقوله:**﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ **[البقرة: ١٧٨]وهنا استخدم المصدر مرفوعا في سبيل الواجبات(امساك، تسريح)في الآية الأولى و(اتباع وأداء)في الآية الثانية، بينما استخدم المصدر(ضرب) منصوبا في سبيل المندوبات في قوله تعالى:**﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ **[محمد: ٤]**وفي قوله تعالى:**﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا وَصِيَّةٗ لِّأَزۡوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلۡحَوۡلِ غَيۡرَ إِخۡرَاجٖۚ فَإِنۡ خَرَجۡنَ فَلَا جُنَاحَ

عَلَيۡكُمۡ فِي مَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعۡرُوفٖۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٤٠]قراءتان للمصدر(وصية)بالرفع واجبة وبالنصب مندوبة.

هذه شواهد للتوضيح وتقريب الصورة عن المقصود بفكرة نظم القرآن، وهذا ما نجده في عوم آيات وسور القرآن الكريم وليست في الشواهد دون غيرها.